البُعد الأخلاقى فى فِقْه الإمام القرضاوى

*جمال نصار

مقدمة:

لقد اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بالجانب الأخلاق، فنجد أن رسالة الإسلام تقوم على أساس الأخلاق، والهدف من بعثة النبى الكريم صلى الله عليه وسلم أن يتمم مكارم الأخلاق، وينشر مبادئ الحق والعدل والخير بين الناس؛ حتى ينالوا السعادة فى الدنيا والآخرة، ويلخص الرسول الهدف من رسالته فيقول فى إيجاز بليغ: (بعثت لأتمم حُسن الأخلاق) .[1]وتتميم الأخلاق يعنى ناحيتين: الحضّ عليها، ثم الارتفاع بها، وربطها بالمثل الأعلى؛ حتى تكون خالصة لله لا تشوبها شائبة من رياء أو مباهاة أو سمعة. كما أثنى القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم فى أبلغ وأرفع وصف من قوله: (وَإِنّکَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ).[2]

وإذا عدنا إلى ما قبل الإسلام؛ سنجد أن الأخلاق كانت فى نظر الفلاسفة اليونان وغيرهم، آراء نظرية، بمعنى، أنها كانت فى حيز الحوارات، والنقد، بين الخطأ والصواب، ومعرفة الخير، من الشر.

وفى الجزيرة العربية لم تكن الأخلاق هى الحاكمة، وإنما كان لكل قبيلة شيخها الذى هو بمثابة الحاكم، والأب والقائد الحانى على أفراد قبيلته، يسوسها ويرعاها، ويدافع عنها، ويجلب لها ما ينفعها، ويجنبها ما يضرها.

وكان فى العرب عادات سيئة كشرب الخمر ووأد البنات، ولعب الميسر، ولكن كان إلى جانب هذه العادات الرديئة، عادات كريمة، كالصدق والشجاعة وحماية الجار، وإكرام الضيف والكرم والشرف والدفاع عن العرض وإغاثة الملهوف، فلما جاء الإسلام، أبطل العادات الذميمة، وعزّز العادات الكريمة.

والأخلاق فى الإسلام، علم ومعرفة وتطبيق وثواب وعقاب فى الدنيا وفى الآخرة يوم القيامة قال تعالى (إِنّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيم وَإِنّ الْفُجّارَ لَفِى جحِيم)[3]، وقال صلى الله عليه وسلم (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[4]، والسبب فى اهتمام الإسلام بالأخلاق هذا الاهتمام كله، هو أن الأخلاق الإسلامية، محور الحياة وعمودها الفقرى، وهى أمر لا بد منه لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحية المادية والمعنوية.

وقد اهتم مفكرو الإسلام بالجانب الأخلاقى؛ لما له من أهمية كبيرة فى بناء الأمم ونهضتها، فتحدّث ابن مسكويه (421ه)[5]، وأبو الحسن الماوردى (450ه)[6]، والراغب الأصفهانى (502ه)[7]، والإمام الغزالى المتوفى (505ه)[8]، وابن القيم (756ه)[9]، وغيرهم كثير، ومن هؤلاء الأعلام المُبرّزين الإمام القرضاوى الذى أولى للجانب الأخلاقى أهمية كبيرة فى كل مؤلفاته ومحاضراته ومقالاته، حتى أنه جعلها من أعمدة الإسلام، وجعلها من خصائصه العامة[10]، بل أكثر من ذلک أنه جعل الأخلاق من صميم الجهاد والأساس الذى يقوم عليه[11]، وربط الاقتصاد الإسلامى بالقيم والأخلاق[12]، بل جعل المدخل الطبيعى لمعرفة الإسلام من خلال الأخلاق[13]، وربط الإيمان والحياة

بالأخلاق [14]فحياة الإنسان كلها تدور فى إطار الوازع الأخلاقى، ولم يخلو مؤلف من مؤلفاته، أو كتاب من كتبه إلا وأشار إلى دور الجانب الأخلاقى فى ذلك.

وفى هذه الورقة البحثية أحاول جاهداً إلقاء الضوء على جهود الإمام الشيخ القرضاوى فى هذا المجال، حيث أكد أن الأخلاق من خصائص الإسلام، وأنها تسرى فى كيان الإسلام كله، وفى تعاليمه كلها، حتى فى العقائد والعبادات والمعاملات، وتدخل فى السياسة والاقتصاد، والسلم والحرب. وتُقسّم الورقة إلى أربع مباحث هى:

المبحث الأول: مكانة الأخلاق فى الإسلام

المبحث الثانى: مكانة الأخلاق عند الفقهاء

المبحث الثالث: اهتمام الإمام القرضاوى بالجانب الأخلاقى

المبحث الرابع: الباعث الأخلاقى فى فقه الإمام القرضاوى

المبحث الأول: مكانة الأخلاق فى الإسلام

الإسلام فى جوهره رسالة أخلاقية، بكل ما تحمله هذه الكلمة من عمق وشمول، فالأخلاق خصيصة من خصائصه العامة، ولذلك جعل الله الأخلاق مناط الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة، فيعاقب الناس بالهلاك فى الدنيا لفساد أخلاقهم، يقول تعالى: (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)[15]، ويكافئ الأبرار والصالحين بالجنة، ويعاقب الفجار والأشرار بالنار يوم القيامة، يقول عزوجل: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ).[16]

وقد حث النبى صلى الله عليه وسلم على حُسن الخلق، فعن أبى الدراداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (ما من شىء فى الميزان أثقل من حسن الخلق)، وعن عبد الله بن عمرو قال: لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: (خياركم أحسنكم أخلاقًا)، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول: (أخبركم بأحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة؟)، فسكت القوم فأعادها مرتين أو ثلاثًا. قال القوم: نعم يارسول الله، قال: (أحسنكم خُلقًا).[17]

وكان صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم يتمثلون الأخلاق الحميدة منذ الأيام الأولى لدخولهم تحت راية الإسلام، فلم تغب عن عقولهم سمات الإسلام الخلقية التى أودعها الله تعالى عقائد هذا الدين، وشرائعه ومعاملاته، بل إنهم كانوا يدركون نعمة الله عليهم فيما تضمنه هذا الدين من مكارم الأخلاق، وأبرز مثال على ذلك: حديث جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه حين قام يشرح للنجاشى ملك الحبشة خصائص هذا الدين، الذى من أجله حاربهم مشركو مكة حتى اضطروهم إلى ترك ديارهم وأوطانهم: "كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن

الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة [18]...إلى آخر حديثه الذى وضّح فيه شعائر الإسلام.

وكان هذا الطابع الخلقى بارزاً كذلك فى وصايا الإسلام العامة بمكارم الأخلاق، ولذلك كان الناس حين تعرض عليهم هذه الوصايا لا يملكون أنفسهم من الاعتراف بسمو دعوته، وعلو درجته. يتضح ذلك فيما قاله أكثم بن صيفى[19]، حين سمع قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[20]، قال لقومه محرضاً على دخول الإسلام: "إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا فى هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناباً.[21]"

لذلك كان مقصود الرسالة المحمدية، "تنمية الإحساس الأخلاقى فى بنى البشر، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم؛ حتى يسعوا إليها على بصيرة، ومن هنا كان التأكيد على الثمرة الأخلاقية لكثير من العبادات بحيث تفارق كونها طقوساً وشعائر مبهمة، وتعمل على تحرير الطاقات الأخلاقية الكامنة فى الكينونة الإنسانية، فيترقى هذا الكائن فى مدارج الكمال الإنسانى، ويصبح وجوده ذا مغزى عميق، تتجلى من خلاله القدرة الإلهية فى صياغة المجتمع الفاضل والحياة الكريمة لبنى الإنسان، ومن هنا نفهم قوله تعالى: (وأَقِمِ الصّلاةَ إنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ) [22]إلى غير ذلك من الآيات التى تؤكد على المغزى الأخلاقى والروحى للعبادات والشعائر.[23]

والإسلام لم يحصر علمنا بالأخلاق على العقل أو المشيئة أو التجارب أو العلوم الإنسانية فقط، حتى تتغير أحكامنا الخلقية بتغير هذه الوسائل الأربع ولا يقر لها قراراً أبداً، بل الإسلام يمنحنا مرجعاً ثابت الأركان، يزودنا بالتعاليم الخلقية فى كل زمان ومكان، ألا وذلك المرجع هو كتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وهذه التعاليم ترشدنا إلى الطريق الأقوم، وتضىء لنا الخطة المستقيمة فى كل شأن من شؤون الحياة من أتفه المسائل البيتية إلى المسائل السياسية الدولية العظيمة ومشاكلها الخطيرة، ونجد فيها انطباقاً متسعاً لأصول الأخلاق على شؤون الحياة المختلفة، لا نحتاج بعده فى مرحلة من مراحل الحياة إلى وسيلة للعلم أخرى.[24]

والقرآن الكريم زاخر بالنماذج العليا والرفيعة التى تمثل قيم الإسلام وأخلاقه[25]، وتحثه على التخلق بالأخلاق الفاضلة، والتخلى عن الأخلاق الذميمة، ويمكن أن نُرجع اهتمام الإسلام بالأخلاق إلى أن "الأخلاق أمر لابد منه لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحية المادية والمعنوية ... ولنتصور حياة مجتمع ماذا يحدث فيها لو أُهملت المبادئ الأخلاقية، وسادت فيها الخيانة والفسق، والكذب، والغش، والسرقة، وسفك الدماء، والتعدى على الحرمات والحقوق، وزالت كل المعانى الإنسانية فى علاقات الناس من المحبة والمودة والنزاهة والتعاون والتراحم والإخلاص؛ فهل من الممكن أن تدوم الحياة الاجتماعية فى هذه الحالة؟[26]"!

وعلى هذا نجد أن الأخلاق تسرى فى كيان الإسلام كله، وفى تعاليمه كلها، فى العقائد والعبادات والمعاملات، وتدخل فى السياسة والاقتصاد، وفى جميع مناحى الحياة[27]

ولم تدع الأخلاق فى الإسلام جانبًا من جوانب الحياة؛ إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع، على مستوى الفرد، والأسرة، والمجتمع، حتى ما يتعلق بغير العقلاء من الحيوانات والطير، وما يتعلق بالكون بشكل عام.

- **ما يتعلق بالفرد فى كافة نواحيه:**

جسمًا له ضروراته وحاجاته، فى قوله تعالى: (وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إنّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ)[28]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن لنفسك عليك حقًا)[29]

وعقلاً له مواهبه وآفاقه، يقول عز وجل: (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السّمَوَاتِ والأَرْضِ)[30]، ويقول: (قُلْ إنّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمّ تَتَفَكَرُوا)[31]

ونفسًا لها مشاعرها ودوافعها وأشواقها، يقول تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكّاهَا وقَدْ خَابَ مَن دَسّاهَا)[32]

- **وما يتعلق بالأسرة:**

كالعلاقة بين الزوجين، يقول عز وجل: (وعَاشِرُوهُنّ بِالْمَعْرُوفِ فَإن كَرِهْتُمُوهُنّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا ويَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا).[33]

والعلاقة بين الأبوين والأولاد، يقول تعالى: (ووَصّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إحْسَانًا)[34]، ويقول عز وجل: (ولا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاقٍ نّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإيّاكُمْ إنّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا).[35]

والعلاقة بين الأقارب والأرحام، يقول تعالى: (إنّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتَاءِ ذِى القُرْبَى)[36]، ويقول تبارك وتعالى: (وآتِ ذَا القُرْبَى حَقّهُ والْمِسْكِينَ وابْنَ السّبِيلِ).[37]

ج _ وما يتعلق بالمجتمع:

فى آدابه ومجالاته، مثل قوله تعالى: (لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّى تَسْتَأْنِسُوا وتُسَلّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لّكُمْ لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ)[38]

وفى اقتصاده ومعاملاته، يقول عز وجل: (وَيْلٌ لّلْمُطَفّفِينَ الّذِينَ إذَا اكْتَالُوا عَلَى النّاسِ يَسْتَوْفُونَ وإذَا كَالُوهُمْ أَو وزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)[39]، وقوله تبارك وتعالى: (يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا إذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ولْيَكْتُب بّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ولا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلّمَهُ اللّهُ).[40]

وفى سياسته وحكمه، يقول تعالى: (إنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدّوا الأَمَانَاتِ إلَى أَهْلِهَا وإذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ).[41]

د- وما يتعلق بغير العقلاء من الحيوان والطير:

كما ورد فى الحديث الشريف: (فى كل كبد رطبة أجر)[42]، وفى الحديث الآخر: (عُذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعًا، فدخلت فيها النار).[43]

ه- وما يتعلق بالكون الكبير:

من حيث إنه مجال التأمل والاعتبار والنظر والتفكير والاستدلال بما فيه من إبداع وإتقان، على وجوده ومبدعه، وقدرته، وعلى علمه وحكمته، كما قال تعالى: (وسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ ومَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لاَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[44]، وقوله عز وجل: (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَىْءٍ).[45]

وقبل ذلك كله ما يتعلق بحق الخالق العظيم سبحانه وتعالى، الذى لا يعبد غيره ولا يستعان سواه: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[46]، وبهذا يتجلى شمول الأخلاق الإسلامية، من حيث موضوعها ومحتواها.[47]

هذه هى نظرة الإسلام الجامعة المحيطة المستوعبة للأخلاق، لأنها ليست نظرية بشر، بل وحى من أحاط بكل شىء علمًا، وأحصى كل شىء عددًا، لهذا أودع الله فى هذا الدين ما يشبع الإنسان ويقنعه، ويلائم كل أطواره، من الخير والسعادة والمنفعة، حتى الذى يؤمن بأهمية اللذة الحسية يستطيع أن يجدها فيما أعد الله للمؤمنين فى الجنة من نعيم مادى، ومتاع حسى، يقول تعالى: (وفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وتَلَذُّ الأَعْيُنُ) .[48]

المبحث الثانى: مكانة الأخلاق عند الفقهاء

المتأمل فى الفقه الإسلامى يجد أنه يقوم على أساس الشريعة الإسلامية، ومن ثمّ فله صبغة دينية تدعو إلى احترامه وعدم مخالفته؛ فهو ينظم المعاملات والعبادات، ومن هنا كان نظامًا للدين والدنيا. وجانب الأخلاق مُراعى فيه تمام الرعاية؛ حيث إن صناعة الفقه – كما يقول ابن رشد – "تقتضى بالذات الفضيلة العملية.[49]"

وكُتب الفقه تحوى بين جنباتها العديد من البواعث الأخلاقية، وما قامت الشريعة إلا من أجل هذا الباعث، ومن الأمثلة على ذلك قاعدة: "لا ضرر ولا ضرار[50]"، وهى قاعدة مشهورة فى الشريعة الإسلامية يُقصد بها مراعاة الأخلاق فى التعامل مع الآخرين؛ حتى لا يؤدى ذلك إلى الإضرار بهم. وكذلك "المصالح المرسلة"، حيث استطاع الفقهاء من خلالها مواكبة الأحداث والمتغيرات من خلال استنباطهم وقياسهم على الأصول الشرعية الثابتة.

أولا: قاعدة "لاضرر وضرار:"

تشتمل هذه القاعدة على حكمين:

الأول :لا يجوز الإضرار ابتداءً؛ أى لا يجوز للإنسان أن يضر شخصًا آخر فى نفسه أو فى ماله؛ لأن الضرر ظلم، والظلم محرم فى جميع الشرائع. والضرر الممنوع هو الضرر الفاحش مطلقًا؛ أى حتى لو نشأ من قيام الإنسان بالأفعال المباحة، كمن يحفر فى داره بئرًا، أو بالوعة ملاصقة لجدار جاره، أو يبنى جداراً يمنع النور عن جاره. أما الضرر غير الفاحش إذا نشأ من مشروع فليس بممنوع، كما لو بنى شخص جداراً فى داره سد نافذة من نوافذ غرفة جاره.

الثانى :لا يجوز مقابلة الضرر بالضرر، وهذا معنى "ولا ضرار"؛ إذ على المتضرر أن يراجع القضاء لتعويض ضرره، وعلى هذا من أتلف مال غيره لا يجوز للغير أن يتلف مال المُتلِف، بل عليه مراجعة المحكمة لتعويضه عن الضرر.[51]

وعلى ذلك نجد أن القصد الأصلى للشريعة الإسلامية "تحقيق مصالح العباد، وحفظ هذه المصالح، ودفع الضرر عنهم، إلا أن هذه المصالح ليست هى ما يراه الإنسان مصلحة له ونفعًا حسب هواه، .. فالإنسان قد يرى – مدفوعًا بهواه– النافع ضاراً، والضار نافعًا، متأثراً بشهواته النفسية وتطلعه واستشرافه إلى النفع العاجل اليسير، دون الالتفات إلى الضرر الآجل الجسيم، فقد يرى أن من النفع له أكل مال الناس بالباطل بالأساليب الخفية الملتوية، أو باحتكار أقواتهم، أو بأخذ الربا ليزيد ماله بهذا الطريق المحرم الخبيث، أو يقعد عن الجهاد ليتمتع بمتع الحياة، وينسى هذا الإنسان أن هذه المنافع صورية لا حقيقية؛ إذ هى فى جوهرها ضرر محض فى العاجل والآجل.[52]

ولا يخفى على أحد أن مقصود هذه القاعدة باعث أخلاقى، فحواه عدم الفساد فى الأرض والإضرار بالآخرين.

ثانيًا المصالح المرسلة:

المصلحة المرسلة هى: "التى لم يشرع الشارع حكمًا لتحقيقها، ولم يدل دليل شرعى على اعتبارها أو إلغائها، وسميت مطلقة لأنها لم تقيد بدليل اعتبار أو دليل إلغاء[53]"، وهذه المصلحة اعتبرها الشارع، وشهدت لها نصوصه، وأخذت من مجموع أدلته... والمصلحة المرسلة شهدت النصوص الكثيرة لجنسها، والأصول الكثيرة إذا اجتمعت على معنى واحد وأفادت فيها القطع، فإن هذا المعنى لا يقل قوة عن المعنى الذى شهد نص واحد لعينه، إذا أريد إرجاع مصلحة جزئية إلى هذا المعنى.[54]

ومن الأمثلة التى توضح الباعث الأخلاقى فى المصالح المرسلة:

-1هل يجوز فى حال الحرب أن نضرب فى اتجاه جنودنا الذين أسرهم العدو، واستتر خلفهم ليضربنا ويحتل أرضنا؟ أو أن من الواجب – على عكس ذلك – أن نمسك عن الضرب رعاية للشرع الصريح الذى يمنعنا أن نستبيح دم برىء؟ والله تعالى يقول: (ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الّتِى حَرّمَ اللّهُ إلا بِالْحَقِّ).[55]

يجيب الإمام مالك عن هذا السؤال مرجحًا الأخذ بأخف الضررين، ويعلل لذلك بأننا لو بقينا دون عمل؛ احترامًا لهذا العدد القليل من جنودنا، الذين جعلهم سوء الحظ درعًا للعدو، فإن بقية الجيش – وهى الكثرة الكاثرة منه – قد تتعرض للهلاك، ثم لن ينجو – أيضًا – أسرانا من نفس المصير بعد ذلك. ولا ريب إذن فى أن الشرع الإسلامى يقدم دائمًا إنقاذ الجماعة،

ومصلحتها المشتركة والدائمة، على حياة الأفراد ومصالحهم العاجلة. ويختم حديثه بقوله: "إننا مع احتياطنا للحفاظ على رجالنا، لا ينبغى أن نوقف الحرب، بل يجب أن نواصلها، ولو أصيبوا من جرائها.[56]"

-2ومن ذلك تضمين الصُنّاع ما يتلف فى أيديهم من أموال الناس الذين يستصنعون، فقد قضى الخلفاء الراشدون بتضمينهم، وقال على رضى الله عنه فى ذلك: "لا يُصلح الناس إلا ذلك"، ووجه المصلحة فى التضمين أن الناس لهم حاجة إلى الصناع، وهم يغيبون عندهم الأمتعة فى غالب الأحوال، والأغلب عليهم التفريط، وترك الحفظ، فلو لم يثبت تضمينهم مع مسيس الحاجة إلى استعمالهم لأفضى ذلك إلى أحد أمرين: إما ترك الاستصناع بالكلية، وذلك شاق على الخلق، وإما أن يهملوا ولا يضمنوا ذلك بدعواهم الهلاك والضياع، فتضيع الأموال، ويقل الاجترار[57]، وتتطرق الخيانة، فكانت المصلحة التضمين، ولا يقال إن هذا نوع من الفساد، وهو تضمين البرىء؛ إذا لعله ما أفسد ولا فرط؛ لأنا نقول إذا تقابلت المصلحة والمضرة، فشأن العقلاء النظر إلى التفاوت، ووقوع التلف من الصناع من غير تسبب ولا تفريط بعيد، وهو من باب ترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.[58]

*وعلى ذلك نجد أن المصلحة المرسلة أصل عظيم ومصدر خصب للفقه الإسلامى، وعلى أساسه يمكن لولى الأمر (الحكومة) أن توجد النظم الضرورية للدولة التى تحقق الخير والمصلحة للناس، وإن لم يرد بهذه النظم نص صريح فى الشريعة ما دامت لا تخالف ما نطق به الشرع؛ لأن السياسة العادلة وتحقيق العدل والمصلحة يعتبر من الشريعة، لا خارجًا عنها.[59]

المبحث الثالث: اهتمام الإمام القرضاوى بالجانب الأخلاقى

يذهب فضيلة العلامة القرضاوى فى تعريفه للأخلاق بداية، إلى أن مجتمعنا يعانى من أزمات عديدة، على رأسها أزمتان أساسيتان :الأزمة الأولى؛ هى الأزمة الفكرية، والفكرة هى التى تؤثر فى السلوك. فالإنسان لا يستطيع أن يسلك طريقًا إلا إذا كان يعرف أنه يؤدى به إلى وجهته، وإذا كان تصوره خطأ يمكن أن يسير فى الاتجاه المضاد.

أما الأزمة الثانية؛ فهى الأزمة الأخلاقية، يقول فضيلته: ونحن أيضًا، نعانى من أزمة أخلاقية ولكن لابد من تصحيح الفكر أولاً، ولذلك كان أول ما نزل من القرآن الكريم هو قول الله تعالى: (اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الّذِى خَلَقَ)[60]، والقراءة مفتاح العلم والفكر، ثم بعد ذلك جاء العمل والأخلاق فى قوله تعالى (يَا أَيُّهَا المُدّثّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وربّکَ فَکَبّرْ وثِيَابَکَ فَطَهّرْ والرُّجْزَ فَاهْجُرْ ولا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ولِرَبِّکَ فَاصْبِرْ).[61]

ثم يؤكد فضيلته أن السلوك والأخلاق يأتى بعد تصويب الفكر وتصحيح منهج النظر؛ ويقول: ومن أجل هذا اهتممت بهذا الجانب الأخلاقى، والإسلام رسالة أخلاقية، قال النبى محمد عليه الصلاة والسلام (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[62]، والأخلاق هى صورة إيمانية إسلامية، ويوضحها قوله سبحانه وتعالى: (قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ الّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ والّذِينَ هُمْ عَنِ اللّغْوِ مُعْرِضُونَ والّذِينَ هُمْ لِلزّكَاةِ فَاعِلُونَ والّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وراءَ ذَلِکَ فَأُوْلَئِکَ هُمُ العَادُونَ والّذِينَ هُمْ لاَمَانَاتِهِمْ وعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)[63]، وهذا يعنى أن

الإيمان يصور فى أخلاق. ومن ذلك أيضًا (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره)[64]، فالإيمان والعقيدة يتمثلان فى أخلاقيات.

ويربط الإمام القرضاوى بين تقدم الأمة وبين ارتفاع مستواها فى الأخلاق، فكلما ارتفعت فى أخلاقها ارتقت وتقدّمت، يقول: "لا نستطيع أن نرتفع بمستوى أمتنا إلا إذا ارتفعنا بمستوى أخلاقها، ما الذى جعل بلداً مثل اليابان يتقدم فى صناعته، ويغزو أسواق العالم، ويكتسح حتى المنتجات الأمريكية والأوروبية؟ إنها مجموعة من الأخلاقيات: الدأب والصبر والعمل وغيرها. والمفروض أننا نحن المسلمين نتعبد بالعمل لكن أحد بلادنا العربية شهد منذ سنوات إحصاء لمتوسط ساعات عمل الفرد، فوجد أنه حوالى نصف ساعة يوميًا! فأين تذهب أوقات الناس؟ وأين تذهب جهودهم كذلك؟ لذلك لابد من الأخلاق.[65]

ويرى فضيلته أن الأخلاق جامعة لكل مناحى الحياة وداخلة فى تفاصيلها، حيث يقول عنها أنها: "تشمل كل ما يتصل بالحياة الإنسانية، فردية وأسرية واجتماعية واقتصادية وسياسية، لأن الأخلاق عندنا نحن المسلمين لا تنفصل عن السياسة، والأخلاق لا تنفصل عن الاقتصاد، والأخلاق لا تنفصل عن الحرب.[66]"

وفى ثنايا إجابته على سؤال حول صفات الإنسان المسلم الصالح ومقوماته، قال: "الشخصية التى يبنيها الإسلام لها مقومات عدة، مقومات عقائدية، وتعبدية، وعقلية، ونفسية وأخلاقية، لابد من تكامل هذه المقومات بعضها مع بعض حتى تتكامل الشخصية المسلمة، المسلم شخصية متكاملة فى تربيتها وتكوينها، تكونت عقليًا بالثقافة جسميًا بالرياضة، روحيًا بالعبادة خلقيًا بالفضيلة، نفسيًا بالأمل والتفاؤل، عقليًا بالتفكر والنظر والتأمل، اجتماعيًا بالخدمة والمشاركة فى المجتمع، سياسيًا بالوعى والاهتمام بأمر المسلمين، عسكريًا بالخشونة والتدريب، هى شخصية إسلامية متكاملة أساسها الإيمان والأخلاق.[67]"

ويذهب الشيخ القرضاوى إلى أن الأخلاق الإسلامية، لها خصائص ومقومات عدة منها أنها أخلاق ربانية، بمعنى: "أن الوحى الإلهى هو الذى وضع أصولها، وحدد أساسياتها، التى لا بد منها لبيان معالم الشخصية الإسلامية، حتى تبدو متكاملة متماسكة متميزة فى مخبرها ومظهرها، عالمة بوجهتها وطريقتها، إذا التبست على غيرها المسالك، واختلطت الدروب[68]"، وذهب أيضًا إلى أن هذه الأخلاق واقعية ممكنة التطبيق، وتتسم بالشمول والعموم، وتهتم بالنية، وتجمع بين الإلزام كضابط والالتزام كحرية، وتتسم أيضًا بالإيجابية والتوازن.[69]

العقائد الإسلامية والأخلاق عند القرضاوى:

يقول الإمام القرضاوى: العقائد الإسلامية أساسها التوحيد، هنا نجد الإسلام يضفى على التوحيد صبغة خلقية، فيعتبره من باب "العدل" وهو فضيلة خلقية، كما يعتبر الشرك من باب "الظلم" وهو رذيلة خلقية: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[70]، وذاك لأنه وضعٌ للعبادة فى غير موضعها، وتوجه بها إلى من لا يستحقها.

بل اعتبر القرآن الكفر بكل أنواعه ظلمًا، كما قال تعالى: (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .[71]والإيمان الإسلامى حين يتكامل ويؤتى أكله، يتجسد فى فضائل أخلاقية فاضت بها آيات القرآن، وأحاديث الرسول.

والأحاديث النبوية كذلك تربط الفضائل الأخلاقية بالإيمان، وتجعلها من لوازمه وثمراته: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)[72]، و(الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[73]، و(لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن).[74]

العبادات الإسلامية والأخلاق عند القرضاوى:

يربط الإمام القرضاوى بين العبادات الإسلامية الكبرى والأخلاق ربطًا مُحكمًا، ويذهب إلى أن كل العبادات الإسلامية التى يتقرّب بها العبد لربه لها أهداف أخلاقية واضحة، فالصلاة وهى العبادة اليومية الأولى فى حياة المسلم، لها وظيفة مرموقة فى تكوين الوازع الذاتى، وتربية الضمير الدينى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)[75]، ويذهب إلى أنها تمد المسلم بمدد أخلاقى، يستعين به فى مواجهة متاعب الحياة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ).[76]

وأثناء حديثه عن ركن الزكاة التى قرنها القرآن بالصلاة، يقول فضيلته: ليست مجرد ضريبة مالية، تؤخذ من الأغنياء، لترد على الفقراء، إنها وسيلة تطهير وتزكية فى عالم الأخلاق، كما أنها وسيلة تحصيل وتنمية فى عالم الأموال: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا).[77]

وحينما تحدث فضيلته عن الصيام فى الإسلام، يقول: إنما يقصد به تدريب النفس على الكف عن شهواتها، والثورة على مألوفاتها، وبعبارة أخرى: إنه يهيئ النفس للتقوى وهى جماع الأخلاق الإسلامية :[78]يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.[79]

وفى حديثه عن ركن الحج فى الإسلام، يذهب إلى أنه: تدريب للمسلم على التطهر والتجرد والترفع عن زخارف الحياة وترفها، وخضامها وصراعها؛ ولذا يفرض فى الإسلام الإحرام ليدخل المسلم حياة قوامها البساطة والتواضع والسلام والجدية والزهد فى مظاهر الحياة الدنيا: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِى الْحَجِّ).[80]

وخلاصة القول يذهب الإمام القرضاوى إلى أنه حينما تفقد هذه العبادات الإسلامية هذه المعانى ولا تحقق هذه الأهداف، تفقد بذلك معناها وجوهر مهمتها، وتصبح جثة بلا روح. ولا غرو أن جاءت الأحاديث النبوية الشريفة تؤكد ذلك بأسلوب بليغ واضح.

الأخلاق والاقتصاد عند القرضاوى:

يذهب فضيلة الشيخ القرضاوى أن للأخلاق الإسلامية مجالها وعملها فى شئون المال والاقتصاد، سواء فى ميدان الإنتاج أو التداول أو التوزيع أو الاستهلاك، فليس للاقتصاد أن ينطلق –كما يشاء– بلا حدود ولا قيود، دون ارتباط بقيم، ولا تقيد بمثل عُليا، كما هى دعوة بعض الاقتصاديين للفصل بين الاقتصاد والأخلاق. يقول: ليس للمسلم أن ينتج ما يشاء ولو كان ضاراً بالناس ماديًا أو معنويًا، وإن كان يستطيع أن يحصل هو من وراء هذا الإنتاج أعظم الأرباح، وأكبر المنافع[81].

ويقول: "إنه لا يجوز أبداً تقديم الأغراض الاقتصاديةَ على رعايةَ المُثل والفضائل التى يدعو إليها الدين، على حين نجد الأنظمةَ الأخرى تؤثر الكسب الاقتصادى، ولو على حساب الإيمان ومقتضيات الإيمان[82]"

إن زراعةَ التبغ "الدخان" أو "الحشيش" ونحوه من المواد المخدرةَ أو الضارةَ قد يكون فيها مكسب مادى كبير، ولكن الإسلام ينهاه أن يكون كسبه ونفعه من وراء خسارةَ غيره وضرره.

وإن تصنيع الأعناب ليصبح عصيرها خمراً يجلب أرباحًا وفيرةً ويحقق منافع اقتصاديةً للمنتجين من أصحاب الكروم، ولكن الإسلام أهدر هذه المنافع فى مقابل المضار الضخمةَ التى تترتب على الخمر فى العقول والأبدان والأخلاق، وتتمثل فساداً فى الأفراد والأسر والجماعات، يقول القرآن: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) .[83]وليس للمسلم –فى ميدان التبادل– أن يتخذ بيع الخمر أو الخنزير أو الميتةَ أو الأصنام تجارةً، أو يبيع شيئًا لمن يعلم أنه يستعمله فى شر أو فساد أو إضرار بالآخرين، كالذى يبيع عصير العنب –أو العنب نفسه– ممن يعلم أنه يتخذه خمراً، أو يبيع السلاح ممن يعلم أنه يقتل به بريئًا، أو يستخدمه فى ظلم وعدوان، وفى الحديث: (إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه)[84]، وليس للمسلم أن يحتكر الطعام ونحوه مما يحتاج إليه الناس رغبةً فى أن يبيعه بأضعاف ثمنه، وفى الحديث الصحيح: (لا يحتكر إلا خاطئ)[85]؛ أى آثم. وليس للتاجر المسلم أن يخفى مساوئ سلعته وعيوبها، ويبرز محاسنها مضخمةً مكبرةً، على طريقةَ الدعايةَ الإعلاميةَ المعاصرةَ، ليبذل المشترون المخدوعون فيها من الثمن أكثر مما تستحق. فهذا غش يبرأ منه الإسلام، ورسول الإسلام: (ليس من من غشّ).[86]

وفى مجال التوزيع والتملك، لا يجوز للمسلم أن يتملك ثروةً من طريق خبيث، ولا يحل له أن يأخذ ما ليس له بحق لا بالعدوان ولا بالحيلةَ، كما لا يحلّ للمسلم الملك بطريق خبيث، لا يحل له تنميةَ ملكه بطريق خبيث كذلك؛ لهذا حرم الله الربا والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، والظلم بكل صوره، والضرر والضرار بكل ألوانه.

وفى مجال الاستهلاك، لم يدع الإسلام للإنسان حبله على غاربه، ينفق كيف يشاء، ولو آذى نفسه أو أسرته أو أمته، بل قيده بالاعتدال والتوسط فقال: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُوراً)[87]، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ[88]، وحمل على الترف والمترفين، وحرم كل ما هو من مظاهر الترف مثل أوانى الذهب والفضةَ، فحرمها على الرجال والنساء جميعًا، كما حرم على الرجال لبس الذهب والحرير، وبهذا تميز الاقتصاد الإسلامى بهذه الخصيصةَ العظيمةَ من خصائصه، أنه "اقتصاد أخلاقى[89]"

وهذه الأخلاق تقدر أن تعطى معنى جديداً لمفهوم "القيمةَ"، وتملأ الفراغ الفكرى الذى يوشك أن يظهر من نتيجةَ (آليةَ التصنيع)، وإذا استقرأنا الواقع التطبيقى، وجدنا أثر هذا الاقتران بين الاقتصاد والأخلاق، واضحًا وعميقًا فى تاريخ المسلمين، وخاصةً يوم كان الإسلام هو المؤثر الأول فى حياتهم، والموجه الأول لنشاطهم وسلوكهم.

وأثناء حديثه عن خصائص الشريعةَ الإسلاميةَ يقول: "هى توازن بين مصلحةَ الفرد ومصلحةَ الجماعةَ، دون إخلال، فتبيح الملكيةَ الفرديةَ وتطلقها لينتفع الفرد، ثم هى تعمل على نفع المجتمع وتضع قيوداً على التملك وطرائقه، تمنع فيها الظلم والعدوان والاحتكار والغش والخداع، وتضع قيوداً على الاستثمار وتنميةَ المال، وأخرى على التسويق والتوزيع، والانفاق

والاستهلاك، وبعض هذه القيود أخلاقية يقوم على الإيمان، وأخرى قانونية يقوم عليها السلطان، موازنة بين حقوق الأفراد والمجتمعات، وإقامة للقسط وإشاعة للعدل[90]"

السياسة والأخلاق عند القرضاوى:

يقول الشيخ القرضاوى: ليست السياسة الإسلامية سياسة "ميكافيلية" ترى أن الغاية تبرر الوسيلة أيًا كانت صفتها، بل هى سياسة مبادئ وقيم تلتزم بها، ولا تتخلى عنها، ولو فى أحلك الظروف، وأحرج الساعات، سواء فى علاقة الدولة المسلمة بمواطنيها داخليًا، أو فى علاقتها الخارجية بغيرها من الدول والجماعات.

إن الإسلام يرفض كل الرفض الوسيلة القذرة، ولو كانت للوصول إلى غاية شريفة: (إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا)[91]، فالخبيث من الوسائل، كالخبيث من الغايات مرفوض، ولا بد من الوسيلة النظيفة للغاية الشريفة.

وفى علاقة الدولة بمواطنيها يقول الله تعالى مخاطبًا أولى الأمر فى المسلمين: (إِنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنّ اللّهَ نِعِمّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيراً)[92]، فأداء الأمانات –بمختلف أنواعها المادية والأدبية– إلى مستحقيها، والحكم بين الناس –كل الناس– بالعدل، هو واجب الدولة المسلمة مع رعاياها.

إن السياسة الإسلامية فى الداخل يجب أن تقوم على أساس العدل والإنصاف والمساواة بين الجميع فى الحقوق والواجبات والعقوبات، وعلى الصدق مع الشعب ومصارحته بالحقيقة دون تضليل أو تدجيل وكذب عليه، فإن أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (مَلِكٌ كذّاب) كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم، وفى علاقة الدولة بغيرها من الدول يجب عليها الوفاء بعهودها، وجميع التزاماتها، واحترام كلمتها. يقول تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَلاَ تَكُونُوا كَالّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوّةٍ أَنْكَاثًا تَتّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمّةٍ إِنّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيّنَنّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنّ عَمّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .[93]يقول الشيخ رضى الله عنه: فى هاتين الآيتين يأمر الله تعالى باحترام العهود والمواثيق ويضيفها إلى الله تعالى (عهد الله)، ويحذر من نكث العهود بعد إبرامها، كفعل تلك المرأة الحمقاء التى تنقض غزلها من بعد إحكامه، وقوة إبرامه، وينادى بأن تكون المعاهدات والاتفاق بين الأمم مبنية على الإخلاص وحسن النوايا، دون الدخل والغش الذى يقصد به أن تكون أمة هى أربى وأزيد نفعًا من أمة، فتستفيد من المعاهدة على حساب أمة أخرى. وهو ما نشاهده فى معاهدات هذا الزمان.

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم مثالاً يحتذى فى احترام الاتفاقات، ورعاية العهود، وإن رأى أصحابه فيها أحيانًا ما يعتقدونه إجحافًا بالمسلمين، كما فى صلح الحديبية.

يقول الإمام القرضاوى: إذا كان بعض الناس يعتقد أن السياسة لا أخلاق لها، فهذا أبعد ما يكون عن سياسة الإسلام، التى تقوم –أول ما تقوم– على العدل والوفاء والصدق والشرف ومكارم الأخلاق.[94]

*ويرفض الإمام القرضاوى الفلسفة الخلقية التى تقوم على التنظير وتبتعد عن التطبيق؛ يقول: "ورفضنا للفلسفة الأخلاقية ليس رفضًا للأخلاق نفسها، فالأخلاق ملاك الفرد الفاضل، وقوام المجتمع الراقى، يبقى ويستقر ما بقيت، ويذهب ويتلاشى إن ذهبت، بل لا حياة بغيرها.[95]"

*ويذهب إلى أن "المصدر الأساسى للإلزام الخلقى فى الإسلام، ليس هو اللذة ولا المنفعة، ولا العقل ولا الضمير، ولا العرف ولا المجتمع، ولا التطور، ولا غير ذلك مما ذهبت إليه مدارس الفلسفة الخلقية، مثالية وواقعية، وإنما مصدر الإلزام، ومقياس الحكم الخلقى، فى الأساس هو الوحى الإلهى. فالخير ما أمر به الله، والشر ما نهى عنه الله.[96]"

المبحث الرابع: الباعث الأخلاقى فى فقه الإمام القرضاوى

كان للإمام القرضاوى ولا يزال دور كبير فى التأكيد على الوسطية الإسلامية، وقد استلهمها من الآية الكريمة: (وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطًا)[97]، فهو يعرض الإسلام باعتباره موقفًا وسطًا بين أطراف متصالبة متناقضة فهو الوسط الجامع والمجرى الكبير، وسط بين المادية والروحية وسط بين الفردية والجماعية وسط بين المثالية والواقعية

ويحدد الإمام القرضاوى مهام الدارس للشريعة الإسلامية وفقهها، فيقول: "إن هناك دائرتين متمايزتين، لكل منهما خصائصها وأحكامها:

الأولى :دائرة مفتوحة وقابلة لتعدد الأفهام، وتجدد الاجتهادات، ومن شأنها أن تختلف فيها الأقوال، وتتنوع المذاهب. وهذه الدائرة تشمل معظم نصوص الشريعة وأحكامها...

الثانية :دائرة مغلقة، لا تقبل التعدد ولا الاختلاف، لأنها تقوم على نصوص قطعية الثبوت والدلالة، لا تحتمل إلا وجهًا واحداً، ومعنى واحداً، لأنها تجسد وحدة الأمة الفكرية والشعورية والعملية، ولولاها لانفرط عقد الأمة[98]"

ومن هذا المنظور الوسطى يعرض جملة اجتهاداته الفقهية فى كل جوانب الفكر الإسلامى، ومنها اجتهاداته التى ظهرت جلية فى كتابه "فقه الجهاد دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته فى ضوء القرآن والسنة"، الذى حوى بين دفتيه كل ما يتعلق بقضية الجهاد، وكان منها حديثه عن أخلاقيات الحرب والقتال.

أخلاقيات الحرب والقتال عند العلامة القرضاوى:

يذهب الإمام القرضاوى إلى أن الحرب فى الإسلام أخلاقية مثل السياسة والاقتصاد والعلم والعمل، فكلها لا تنفصل عن الأخلاق خلافًا للحرب فى حضارة الغرب، فليس من اللازم أن تنضبط بالأخلاق. بينما يحكم الحرب عند المسلمين دستور أخلاقى، لأن الأخلاق هنا ليست نافلة بل جزء من الدين.

ويقول فضيلته: إن الحرب ضرورة تفرضها طبيعة الاجتماع البشرى، وطبيعة التدافع الواقع بين البشر الذى ذكره القرآن الكريم بقوله: (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّهِ كَثِيراً)[99]، وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ[100]

ولكن ضرورة الحرب لا تعنى الخضوع لغرائز الغضب والحمية الجاهلية وإشباع نوازع الحقد والقسوة والأنانية، إذا كان لا بد من الحرب، فلتكن حرباً تضبطها الأخلاق، ولا تسيرها الشهوات، لتكن ضد الطغاة والمعتدين لا ضد البرآء والمسالمين: (وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[101].

ويقول فضيلته: إذا كان لا بد من الحرب، فلتكن فى سبيل الله، وهو السبيل الذى تعلو به كلمة الحق والخير –لا فى سبيل الطاغوت– الذى تعلو به كلمة الشر والباطل، (الّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَالّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشّيْطَانِ إِنّ كَيْدَ الشّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)[102]، ولتكن من أجل استنقاذ المستضعفين، لا من أجل حماية الأقوياء المتسلطين: (وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرّجَالِ وَالنّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الّذِينَ يَقُولُونَ رَبّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً)[103]، ولتتقيد الحرب بأخلاق الرحمة والسماحة، ولو كانت مع أشد الأعداء شنآناً للمسلمين، وعتواً عليهم.

ويؤكد فضيلته أن الإسلام يعامل الأسرى معاملة أخلاقية بعد أن تضح الحرب أوزارها، يقول: يجب ألا يُنسى الجانب الإنسانى والأخلاقى فى معاملة الأسرى وضحايا الحرب، يقول الله تعالى فى وصف الأبرار من عباده: (وَيُطْعِمُونَ الطّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً إِنّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً). [104]

ويشرح الشيخ القرضاوى المبادئ العامة لفقه الحرب والقتال، فى كتابه فقه الجهاد[105]، يمكن أن نلخصها فى الأمور التالية:

أولا :تحريم الإسلام استخدام أساليب غير أخلاقية لاختراق الأعداء وكشف أسرارهم عبر المحرمات كالجنس والخمر وسائر ما حرم الله تبارك وتعالى.

ثانيًا :الوفاء بالمواثيق والعهود، وتحريم الغدر والخيانة، قال تعالى: (وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا).[106]

ثالثًا :عدم مشروعية استخدام أسلحة الدمار الشامل: حيث يقرر الشيخ عدم مشروعية استخدام الأسلحة الكيماوية والجرثومية ، والنووية التى تقتل الألوف بل الملايين فى دقيقة واحدة، وتأخذ المسىء إلى جانب البرىء، أو تعمل على تدمير الحياة البشرية، وقال: بحرمة هذه الأسلحة، لأن الأصل فى الإسلام عدم قتل من لا يقاتل، وقد أنكر قتل امرأة فى إحدى المعارك، ولكنه أوصى بأن ذلك لا يمنع الأمة من امتلاك أسلحة الدمار الشامل، بل يجب عليها السعى لامتلاك هذه الأسلحة الرادعة ما دام غيرنا يمتلكها ويهددنا بها ويقصد بذلك العدو الصهيونى الذى اغتصب أرضنا فى فلسطين.

رابعًا :يدعو الإسلام إلى التعامل مع الأسرى بإحسان: وبعد المناقشة الطويلة للنصوص الواردة فى الكتاب والسنة والآراء الاجتهادية حول قتل الأسير، انتهى إلى اعتبار الحكم النهائى الوارد فى سورة الأنفال: (فَإِمّا مَنّا بَعْدُ وَإِمّا فِدَاءً)[107]، وقد

يستثنى من ذلک مجرمو الحروب .[108]يقول الإمام القرضاوى فى وجوب معاملة الأسرى معاملة إنسانية: "إن الإسلام يوجب معاملة الأسرى معاملة إنسانية، تحفظ كرامتهم، وترعى حقوقهم، وتصون إنسانيتهم.[109]"

وأكد الإمام القرضاوى أن للحرب فى الإسلام دستوراً شاملاً متكاملاً، ما قبل الحرب وأثناءه وبعده، تم استخلاصه من نصوص الكتاب والسنة[110]، كالتالى:

المادة الأولى:لا يجوز قتل النساء والأطفال والشيوخ

المادة الثانية :لا يقتل العميان ولا الرهبان ولا الفلاحون ولا الصُنّاع ولا التجار

المادة الثالثة :يحرم قتل المدنيين الذين ليسوا من أهل المقاتلة والممانعة

المادة الرابعة :لا يجوز التمثيل بجثث القتلى من الأعداء

المادة الخامسة :لا تهدم منازل المحاربين ولا تحرق محاصيلهم وزروعهم ولا تقتل دوابهم لغير مصلحة

المادة السادسة :الرحمة بالأطفال والصبيان فلا يُجنّدون للحرب إلا بعد بلوغهم وقدرتهم على القتال.

وكل ذلک يشهد على أن الجهاد هو من طبيعة سياسية اقتضتها ضرورات الدفاع عن دار الإسلام، بصدّ المعتدين عليها والدفاع عن المسلمين أن يُفتنوا عن دينهم وعن المستضعفين عامة، إلا أن هذه الأداة السياسية يوجب الإسلام التزامها بدستوره الأخلاقى العقدى.

*لقد أفسح الإمام القرضاوى من خلال طرحه هذا للجهاد أرضًا رحبة للحوار والسماحة والتلاقى والتعايش بين الإسلام وسائر الديانات الأخرى والقيم الإنسانية والمواثيق الدولية بما يفسح مجالاً للاستجابة لنداء القرآن الخالد :[111]يَا أَيُّهَا النّاسُ إنّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ[112]

ويجدر بى أن أختم بما سطرته عن الإمام القرضاوى وهو غيض من فيض؛ بأقوال بعض العلماء الأجلاء فى وصفهم لفضيلته:

يقول: العلامة الهندى المعروف أبو الحسن النّدوى رئيس ندوة العلماء بالهند: "القرضاوى عالمٌ محقق وهو من كبار العلماء والمربّين."

وقال عنه العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز العالم الربانى رحمه الله تعالى: "كتبه لها ثقلها وتأثيرها فى العالم الإسلامى."

وقال العلامة الفقيه الدكتور مصطفى الزرقا، رحمه الله: "القرضاوى حجّة العصر وهو من نعم الله على المسلمين."

ويقول أمير الجماعة الإسلامية بباكستان القاضى حسين أحمد، رحمه الله: "القرضاوى مدرسة علمية فقهية ودعوية يجب أن تستفيد الأمة من نبعها الإسلامى العذب"

وقال عنه مدير المعهد العالمى للفكر الإسلامى بأمريكا طه جابر العلوانى، رحمه الله: "القرضاوى فقيه الدعاة وداعية الفقهاء.[113]"

ووصف الدكتور محمد عمارة الفتوى فى مشروعه الفكرى، بقوله: " هكذا، غدت الفتوى فى المشروع الفكرى للدكتور يوسف القرضاوى، إسهامًا فى تجديد الفكر الإسلامى، لا بالنسبة للمستفتين وحدهم، وإنما لجمهور الأمة وطلائع الصحوة الإسلامية المعاصرة..ففتاواه مادة ثقافة إسلامية للكافة، حتى وإن لم يكونوا سائلين ولا مستفتين.[114]"

مراجع

[1]–الموطأ، كتاب حسن الخلق، رقم الحديث (8)، ص904

[2]–سورة القلم: 4

[3]–سورة الانفطار: 13–14

[4]– مسند أحمد، 379/2، حديث رقم(8918)

[5]–هو أحمد بن يعقوب، أبو على الملقب مسكويه، ويطلق عليه اسم أبى على الخازن، ويعتبر ابن مسكويه هو أول علماء المسلمين الذين كتبوا فى علم الأخلاق بمفهومه العلمى والفلسفى، فى كتابه" :تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق"

[6]– هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى، أكبر قضاة آخر الدولة العباسية، صاحب التصانيف الكثيرة النافعة، منها كتابه المهم، "أدب الدنيا والدين."

[7]– هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهانى (أو الأصبهانى) المعروف بالراغب، أديب وعالم، أصله من أصفهان، ألف عدة كتب فى التفسير والأدب والبلاغة، ومن أشهر ما كتبه فى مجال الأخلاق" :الذريعة إلى مكارم الشريعة."

[8]– أبو حامد محمد الغزّالى الطوسى النيسابورى الصوفى الشافعى الأشعرى، أحد أعلام عصره، وأحد أشهر علماء المسلمين فى القرن الخامس الهجرى، كان فقيهًا وأصوليًا وفيلسوفًا، ومن أهم مؤلفاته فى هذا السياق، كتابه" :إحياء علوم الدين."

[9]– هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكى زيد الدين الزُّرعى، الشهير بابن قيّم الجوزية، من علماء المسلمين فى القرن الثامن الهجرى وصاحب المؤلفات العديدة، وقد تناول الجانب الأخلاقى فى أكثر من كتاب.

[10]– راجع كتابه :الخصائص العامة للإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة الطبعة الثانية، 1401هـ – 1981م

[11]– فى كتابه :فقه الجهاد دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته فى ضوء القرآن والسنة، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، 2009م

[12]– فى كتابه :دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1415هـ – 1995م

[13]– فى كتابه :مدخل لمعرفة الإسلام، مقوماته خصائصه أهدافه مصادره، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1416هـ – 1996م

[14]- فى كتابه :الإيمان والحياة، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثامنة عشر، 1434هـ – 2013م

[15]-سورة يونس: 13

[16]-سورة الانفطار: 13-14

[17]- البخارى، الأدب المفرد، ص90، وراجع ابن مفلح، الآداب الشرعية، 195/2

[18]-ابن هشام، سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، 1 /ص358 – 359

[19]-حكيم من حكماء العرب فى الجاهلية

[20]- سورة النحل: 20

[21]-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 583/2، وراجع مدكور، دراسات فى علم الأخلاق، ص103- 104

[22]-سورة العنكبوت: 45

[23]- الأرنؤوط، شعيب، وآخر، مقدمة الآداب الشرعية لابن مفلح، ص103 – 104

[24]- المودودى، أبو الأعلى، نظام الحياة فى الإسلام، ص16

[25]- راجع الآيات: 177 من البقرة، و 19 – 24 من الرعد، و 63 – 76 من الفرقان، و 22- 39 من الإسراء، و 151 – 153 من الأنعام، و 90 – 97 من النحل، و 19 – 35 من المعارج، و 35 من الأحزاب، و 36 من النساء، و 111 – 112 من التوبة

[26]- يالجن، مقداد، التربية الأخلاقية الإسلامية، مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة الأولى، 1397هـ – 1977م، ص102

[27]- راجع تفصيل ذلك فى: نصار، جمال، مكانة الأخلاق فى الفكر الإسلامى، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، 1425هـ – 2004م، ص30 – 36

[28]-سورة الأعراف: 31

[29]-سنن الترمذى، كتاب الزهد، باب 63، 526/4، حديث رقم(2413)

[30]-سورة يونس: 101

[31]-سورة سبأ: 46

[32]- سورة الشمس: 9 – 10

[33]-سورة النساء: 19

[34]-سورة الأحقاف: 15

[35]-سورة الإسراء: 31

[36]-سورة النحل: 90

[37]-سورة الإسراء: 26

[38]-سورة النور: 27

[39]-سورة المطففين: 1 – 3

[40]-سورة البقرة: 282

[41]-سورة النساء: 58

[42]-فتح البارى، 505 / ، حديث رقم(2363)

[43]- فتح البارى، 505 / ، حديث رقم(2365)

[44]-سورة الجاثية: 13

[45]- سورة الأعراف: 185

[46]-سورة الفاتحة: 5

[47]-القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام، ص106 – 108 بتصرف، وراجع مدخل لمعرفة الإسلام، ص105 – 107

[48]-سورة الزخرف: 71

[49]-فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق محمد عمارة، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1983م، ص30

[50]- الموطأ، كتاب الأقضية، باب 26، ص754

[51]-زيدان، عبد الكريم، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الحادية عشر، 1989م، ص82 – 83

[52]-زيدان، عبد الكريم، الوجيز فى أصول الفقه، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م، ص378 – 379، ويمكن الرجوع للتفصيل فى هذه القضية :الموافقات للشاطبى، 8/2 وما بعدها، والأشباه والنظائر للسيوطى، 210/1 وما بعدها

[53]- خلاف، عبد الوهاب، علم أصول الفقه، دار القلم للطباعة والنشر، الكويت، الطبعة الثامنة، 1900م، ص84

[54]-حسان، حسين حامد، نظرية المصلحة فى الفقه الإسلامى، مكتبة المتنبى، القاهرة، 1981م، ص65

[55]-سورة الأنعام: 151

[56]-دراز، محمد عبد الله، دستور الأخلاق فى القرآن الكريم، ص49 من الهامش، وراجع الحفناوى، محمد إبراهيم، نظرات فى أدلة التشريع المختلف فيها، دار البشير، المنصورة، 1986م، ص35

[57]-اجتر البعير: أخرج جرته، والشيء جذبه، المعجم الوسيط، 121/1

[58]-أبو زهرة، الشيخ محمد، الشافعى حياته وعصره آراؤه وفقهه، دار الفكر العربى، القاهرة، 1996م ص270، وانظر الاعتصام للشاطبى، 356/2 – 357، ونظرية المصلحة فى الفقه الإسلامى، ص76

[59]-المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص58، وراجع ابن قيم الجوزية، الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية، تحقيق محمد الفقى، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ص14

[60]-سورة العلق: 1

[61]-سورة المدثر: 1-7

[62]-مسند أحمد، 381/2، حديث رقم (8939)، والأدب المفرد273

[63]-سورة المؤمنون: 1 – 8

[64]-فتح البارى: 460/10، حديث رقم (6018)، ومسند أحمد، 174/2

[65]- القرضاوى، مقالة بعنوان: ما هى الأخلاق؟، نشرت فى موقع فضيلته بتاريخ: 31 يوليو 2016، الرابط:

Http://Www.Qaradawi.Net/New/Articles-9694

[66]- المرجع السابق نفسه

[67]-موقع القرضاوى، أخلاقيات المسلم، نشرت بتاريخ: 21 يوليو 2011، الرابط:

Http://Www.Qaradawi.Net/New/Articles-665

[68]-القرضاوى، مدخل لمعرفة الإسلام، مقوماته خصائصه أهدافه مصادره، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1416هـ – 1996م، ص48، وراجع أيضًا الخصائص العامة للإسلام، ص39

[69]-راجع تفصيل ذلك فى الخصائص العامة للإسلام، صفحات: 39 وما بعدها، و106 وما بعدها، و151 وما بعدها

[70]-سورة لقمان: 13

[71]- سورة البقرة: 154

[72]- مسند أحمد، 174/2، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الضيف، حديث رقم(74)، 68/1

[73]-صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، حديث رقم (58)، 63/1

[74]-صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى، حديث رقم (100)، 76/1

[75]- سورة العنكبوت: 45

[76]-سورة البقرة: 153

[77]-سورة التوبة: 103

[78]-القرضاوى، مدخل لمعرفة الإسلام، مرجع سابق، ص89

[79]-سورة البقرة: 183

[80]-سورة البقرة: 197

[81]-نصار، جمال، مكانة الأخلاق فى الفكر الإسلامى، مرجع سابق، ص34

[82]- دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى، مرجع سابق، ص57

[83]- سورة البقرة: 219

[84]-مسند أحمد، 293/1

[85]-صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار فى الأقوات، 1228/2، حديث رقم(13)

[86]- سنن أبى داود، حديث رقم (3452)، 270/3

[87]-سورة الإسراء: 29

[88]-سورة الأعراف: 31

[89]-القرضاوى، مدخل لمعرفة الإسلام، ص90 – 91 بتصرف

[90]-القرضاوى، شريعة الإسلام خلودها وصلاحيتها للتطبيق فى كل زمان ومكان، المكتب الإسلامى، بيروت، 1393هـ – 1973م، ص21

[91]-صحيح مسلم، حديث رقم (1015)، 703/2، ومسند أحمد 328/2

[92]-سورة النساء:58

[93]-سورة النحل: 91-93

[94]-مدخل لمعرفة الإسلام، مرجع سابق، 93 – 95

[95]-الإيمان والحياة، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثامنة عشر، 1434هـ – 2013م، ص185

[96]-الخصائص العامة للإسلام، ص45

[97]-سورة البقرة" 143

[98]- القرضاوى، فوائد البنوك هى الربا الحرام، المكتب الإسلامى، بيروت، الطبعة الثالثة، 1418هـ – 1998م ص ب من المقدمة

[99]-سورة الحج: 40

[100]-سورة البقرة: 251

[101]- سورة البقرة: 190

[102]-سورة النساء: 76

[103]- سورة النساء: 75

[104]-سورة الإنسان: 8 – 9

[104]744 – 743 /1

[106]-سورة الإسراء: 34

[107]- سورة محمد: 4

[108]- زهد، عصام العبد، الجهاد فى فكر الإمام القرضاوى، الطبعة الأولى، 1431هـ – 2010م، منشور على الإنترنت

[109]-فقه الجهاد، 955/2

[110]-فقه الجهاد، 745/1-747

[111]- الغنوشى، راشد، ما الجديد فى جهاد القرضاوى؟، ضمن ندوة عن الجهاد فى جامعة أدنبره، منشورة على الإنترنت فى موقع: ويكيبديا الإخوان المسلمين

Http://Www.Ikhwanwiki.Com/Index.Php?Title=ما_الجديد_فى_.جهاد._القرضاوى

[112]-سورة الحجرات: 13

[113]- تليمة، عصام، يوسف القرضاوى فقيه الدعاة وداعية الفقهاء، دار القلم، دمشق، ضمن سلسلة علماء ومفكرون معاصرون لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم، رقم 15' ص49 وما بعدها

[114]-الدكتور يوسف القرضاوى المدرسة الفكرية والمشروع الفكرى، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م، ص61